عبد الرحمن بن عبد القادر الراشدي المجاجي الجزائري
وكتابه التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج

الدكتور خالد بوشمة
أستاذ محاضر بكلية الحقوق والعلوم السياسية
جامعة البليدة 2

مقدمة

يعد التراث المخطوط من أهم لبنات البناء الحضاري للأمم في العصر الحديث ؛ لأن الأمة التي لا ماضي لها تستند إليه، لا حاضر لها ولا مستقبل، ولهذا راحت مختلف الأمم في شتى بقاع الدنيا تحيي تراثها المخطوط، وتبذل في سبيل ذلك الغالي والنفيس، وتنشئ المعاهد والمراكز التي تعنى بذلك.

وإذا كان التراث العربي والإسلامي في المشرق لقي الاهتمام في كثير من الدول العربية والإسلامية هناك، ولا سيما المخطوطات التي تشكل دعامته الأساسية، فراحت تحافظ عليه في المكتبات، وتحييه منذ عقود من الزمن عبر مبادرات فردية ومؤسسات رسمية، فإنّه في الجزائر — رغم الجهود المبذولة – ما زال لم يلق العناية اللازمة التي يستحقها، لأنّه لم يجمع جله في المكتبات المختصة، ولأنّ أكثره مازال أسير الأدراج، وما خرج منه إلى النور خرج بسبب مبادرات الفردية، واجتهادات الشخصية.

ولكن مع هذا الواقع المثبّط لم يتوان الباحثون الجزائريون عبر عقود من الزمن، بالرغم من العوائق الكبيرة التي تحيط بإحياء التراث الجزائري المخطوط، وأبرز هذه العوائق تبعثر هذا التراث في مكتبات العالم، وتفرقه عند الخواص في الزوايا والقرى والفيافي والصحاري.

وفي هذا المجال لا يمكن أن ننكر فضل جهود الكثير ممن سعى لإحياء التراث الجزائري، وعلى رأسهم رائد إحياء المخطوطات الجزائرية، وهو علامة الجزائر محمد بن أبي شنب رحمه الله، وجزاه عن الجزائر خير الجزاء، فسيبقى التاريخ دائما يذكر له بأنّه من أوائل إن لم نقل الأول من سعى في ذلك، كما لا يمكن أن ننكر فضل ثلة من الباحثين في ذلك ؛ كأحمد توفيق المدني، وإسماعيل العربي، وأبو القاسم سعد الله، وعبد الحميد حاجيات، ومحمد علي دبوز، وناصر الدين سعيدوني، ومولاي بلحميسي، ومحمود بوعياد، وغيرهم كثير ممن لا يسع المكان لذكرهم جميعا.

وإسهاما مني بوضع لبنة من لبنات هذا الصرح في خدمة التراث الجزائري، سأتناول في هذا المقال التعريف بأحد أعلام الجزائر الأفذاذ وأهم أعماله العلمية، والذي ظلمه أهله قبل أن يظلمه الغريب، وهو عبد الرحمن بن عبد القادر المجاجي، وكتابه التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج. ولهذا سأتناول هذا الإمام وكتابه في مطلبين هما :

المطلب الأول : حياة الإمام المجاجي.

المطلب الثاني : كتاب التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المطلب الأول : حياة الإمام المجاجي.

لقد أهملت كتب التراجم والأنساب ذكر الإمام المجاجي بشكل عجيب، في حين ترجمت لمن هم أقل منه شأنا بكثير، ولولا بعض كتب الرحلات، وبعض المترجمين لعلماء الجزائر، لما علمنا عنه شيئا، بل حتى الذين اقتبسوا من كتابه واستفادوا منه في مؤلفاتهم، لا يذكرونه باسمه، بل يقولون: {صاحب كتاب المغارسة}. ولهذا سأتناول حياة الإمام المجاجي في خمسة فروع.

الفرع الأول : مولد الإمام المجاجي[1]

ولد الشيخ عبد الرحمن بن عبد القادر المجاجي في بلدته مجاجة؛ وهي مدينة قديمة تقع في غرب الجزائر، ما بين ولاية الشلف (الأصنام سابقا) ومدينة تنس. حيث تبعد عن ولاية الشلف بحوالي 20 كلم. وفيها ترعرع ونشأ، ولم تنقل المراجع تاريخ ميلاده، ولم تشر إلى ذلك، لكن الشيء الأكيد أنّه ولد في القرن العاشر الهجري، وما أظن أنه أكبر من شيخه محمد بن علي أبهلول المجاجي الذي ولد سنة 945هـ، ومنه نرجّح أنّه ولد بعد هذا التاريخ.

الفرع الثاني : نسب الإمام المجاجي

يذكر لنا الشيخ أبو راس الناصري بأن الشيخ أحمد بن القاضي الغبريني الزواوي المدعو بوقطاش: هو أحد أباء عبد الرحمن بن عبد القادر المجاجي صاحب المغارسة[2]. وهو شيخ جبل كوكو في منطقة بجاية وبالضبط أربعاء نايت ايراثن[3]، من أعيان بيوتات الجزائر، والذي هاجرت عائلته إلى مجاجة بعد غزو بربروس لجيجل. وينتهي نسب هذا الشيخ إلى أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي الغبريني (644 هـ – 714 هـ) صاحب كتاب "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية". ومنه فهو ينتمي إلى "بني غبري" بطن من قبائل الأمازيغ البربر في المغرب الأوسط، وبالضبط قبيلة أيت يحي.

وينسب الشيخ بنسبتين هما: "المجاجي" و"الراشدي".

أما النسبة الأولى، وهي المجاجي، فهي نسبة لبلدة مجاجة التي ولد فيها، ونشأ وترعرع، وتوفي.

---

[1] – المصادر التي ترجمت أو ذكرت الشيخ المجاجي هي:

. تعريف الخلف برجال السلف. الحفناوي: ج: 2. ص: 224.

. اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة. محمد البشير ظافر الأزهري. ج: 2. ص: 190.

. عجائب الأسفار ولطائف الأخبار. أبو راس الناصري المعسكري. مخطوط بالمكتبة الوطنية . الجزائر . تحت رقم 1632.ومن المعاصرين:

. الدكتور أبو القاسم سعد الله. في تاريخ الجزائر الثقافي: ج: 2. ص: 30.

. وعادل نويهض. في معجم أعلام الجزائر: ص: 87.

. والزركلي. في الأعلام: ج: 3. ص: 310.

[2] – عجائب الأسفار أبو راس الناصري. مخطوط بالمكتبة الوطنية . الجزائر . تحت رقم 1632. و: 37.

[3] – دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر. عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو. ص: 147

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأمّا الراشدي[1]؛ فالراشدية تسمى بها معسكر وضواحيها، وهم من أبناء أحمد بن راشد بن يحي بن علي بن حمود بن ميمون بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل، وهم من شرفاء غريس. وهذه النسبة التي نسب إليها. فظاهر أنه نسب إليها لأنه ولد ونشأ وتوفي في إقليم الرواشدة، وليس لأنه من سلالتهم.

الفرع الثالث : وفاة الإمام المجاجي

لم تذكر المراجع المكان الذي مات فيه، والأرجح أنّه مات ببلدته مجاجة، أما تاريخ وفاته، فالوحيد الذي ذكر ذلك هو محمد البشير ظافر الأزهري في كتابه اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة[2]، نقلا عن كتاب فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر للعلامة المؤرخ الشيخ مصطفى بن فتح الله نزيل مكة؛ وهي سنة 1020هـ.

وقد أخطأ الأستاذ عادل نويهض في كتابه معجم أعلام الجزائر[3]، عندما اعتبر الشيخ المجاجي من علماء القرن الثالث عشر هجري، التاسع عشر ميلادي.

الفرع الرابع : رحلات الإمام المجاجي في طلب العلم

لقد وقفت على رحلتين للشيخ المجاجي في طلب العلم، الأولى إلى تلمسان، والثانية إلى فاس. كما هي عادة علماء الجزائر في ذلك الوقت.

ورحلاته هذه راجعة إلى انتهاء علاقته بأستاذه، بل نرجح أنّه رحل في حياة شيخه محمد بن علي أبهلول، رغبة في مواصلة طلب العلم، لأنّ ما بين وفاته ووفاة شيخه مده قصيرة (ثماني عشرة سنة)، وهي مدة لا تكفي للرحلة والنبوغ ثم التأليف. وشيخه أبهلول الذي رحل في طلب العلم، وتتلمذ على شيوخ تلمسان[4] كان يأمر بعض تلامذته بالرحلة والتتلمذ على شيوخ معينين، كما فعل مع تلميذه دحو بن زرقة؛ الذي أمره أن يكون تلميذا لسيدي علي الشريف ولا يفارقه إلى الموت[5].

الفرع الخامس : شيوخ الإمام المجاجي

لقد مرّ الشيخ المجاجي في حياته العلمية بثلاث مراحل: فأمّا المرحلة الأولى، فهي مرحلة بلدته مجاجة، التي فتح عينيه فيها، وتلقّى فيها المبادئ الأساسية للعلم الشرعي وحفظ القرآن الكريم، وشتى المتون في مختلف الفنون، كما هي عادة التعليم بالجزائر في ذلك الوقت.

ثم انتقل إلى المرحلة الثانوية في زاوية الشيخ أبهلول المجاجي قرب تنس، وكانت مشهورة بعلمائها وطلابها، فكان أهل تلك النواحي (ومنهم أهل مليانة) يقصدونها للقراءة الثانوية قبل أن ينتشروا في الأرض

---

[1] – انظر التعريف بهذه النسبة: سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول. حشلاف. ص: 110. 111.

[2] – ج: 2. ص: 190.

[3] – ص: 87.

[4] – انظر البستان. لابن مريم: ص: 260

[5] – انظر السلسة الوافية والياقوتة الصافية في أنساب أهل البيت المطهر أهله بنص الكتاب. أحمد بن محمد العشماوي ثم المكي ص: 290.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بحثا عن المزيد من العلوم في مدينة الجزائر وتلمسان وفي فاس وغيرها[1]، فتلقى فيها الشيخ المجاجي تعليمه الثانوي. ثم انتقل إلى تلمسان وفاس وتلقى فيهما تعليمه العالي على شيوخ كثيرين.

وفي هذه المراحل المختلفة من مراحل تعليمه، تنقل الشيخ المجاجي بين يدي شيوخ كثيرين في بلدته مجاجة وتلمسان وفاس. ولكن للأسف الشديد لم تنقل لنا كتب التراجم التي ترجمت له (على قلتها) أسماء شيوخه ما عدا اثنين، وهما محمد بن علي ابهلول المجاجي المتوفي سنة 1002هـ، والمولود عام 945هـ، وأخوه أبو علي الحسن المجاجي.

المطلب الثاني : كتاب التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج

العادة أن يشتهر المؤلف، ويذيع صيته في الآفاق، وإن اندثرت آثاره، أما شيخنا المجاجي فالأمر قد انعكس معه، فقد اشتهر كتابه هذا في الآفاق شهرة كبيرة، وأصبح ملاذ الشيوخ والطلبة على السواء في موضوع المغارسة، ولم يشتهر اسمه، ولهذا سأتناول كتاب التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج في ثمانية فروع.

الفرع الأول : التعريف بالكتاب

لقد ورد كتاب التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج بعناوين مختلفة ومتباينة، وبعد اطلاعي على عنوان الكتاب في النسخ المخطوطة بحوزتي، والتي لم أطّلع عليها اعتمدت في ذلك على كتب الفهارس، بالإضافة إلى الكتب التي ترجمت للشيخ المجاجي، وكتب تاريخ التراث. اتّضح لي بأن العنوان الذي تعضده الأدلّة، وتظافرت عبارته هو: التيسير والتسهيل في ذكر ما أغفله الشيخ خليل من أحكام المغارسة والتوليج والتصيير.

أو : التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج.

وأمّا الاختلافات فسببها إمّا التصحيف وإمّا الإسقاط وإمّا التقديم والتأخير الذي ينقض السجع الذي تتميّز به عناوين المؤلّفات.

واشتمل الكتاب على مبحث أساسي وهو مبحث المغارسة، وهو الغرض من تأليف الكتاب، ومبحثين فرعيين هما التصيير والتوليج.

فأما مبحث المغارسة فتناوله ببيان حقيقة المغارسة وشروطها وصورها وأحكامها ومحظوراتها، وأما مبحث التصيير، وهو أن يعطي المدين ملكا من أملاكه لدائنه في دين له عليه، وتناول التصيير ببيان حقيقته وبعض الفروع المتعلقة بأهم مسائله. وأما مبحث التوليج، وهو جعل الوالد ماله لبعض أولاده، فيتسامع الناس به، فينتهون عن سؤاله، وتناول التوليج ببيان حقيقته وبعض الفروع المتعلقة بأهم مسائله.

الفرع الثاني : التحقق من نسبة الكتاب للإمام المجاجي

ما من شك من أنّ كتاب التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج، هو للإمام عبد الرحمن بن عبد القادر الراشدي المجاجي الجزائري. وقد ذكر ذلك كلّ من ترجم له، من أمثال الشيخ

[1] – انظر تاريخ الجزائر الثقافي: ج: 2. ص: 108.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحفناوي، وأبو راس الناصري، والشيخ مصطفى بن فتح الله، بالإضافة إلى أنّ اسمه المقرون بنسبه "المجاجي" موجود في بعض النسخ المخطوطة التي اطلعت عليها.

ولا يُؤبه إلى ما يذكره بعض الباحثين من المفهرسين للمخطوطات (وحتّى عند طبعه): من أنّ الكتاب للشيخ عبد الرحمن بن عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي (توفي سنة 1096هـ)، فهذا وهم منهم، نتج عن تشابه في الاسم، ولو كلّفوا أنفسهم بعض العناء في تقصّي مؤلفات هذا الشيخ الفاسي، في كتب التراجم[1]، التي أحصت تآليفه كلّها بدون إغفال واحد منها، وهذا لمكانته العلمية العظيمة عند أهل المغرب، فقد لقّب بسيوطي عصره، لما وجدوه ضمنها، وإنّما اعتمدوا على ما ذكره كارل بروكلمان[2]، أو صاحب هدية العارفين[3].

الفرع الثالث : طبع الكتاب

لقد يسّر الله تعالى عاملين لخروج كتاب التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج من ظلمات مكتبات المخطوطات إلى نور النشر وإن كان نشرا على الحجر. وهذان العاملان هما:

أولا : أنّ الكتاب قد أفرد في موضوع هام جدا لم يفرد له العلماء تأليفا يصدق عليه اسم كتاب، وكثر تداوله بين الطلبة، فكثرت نسخه في المكتبات العالمية، هذا حثّ العلماء في المغرب الأقصى على أن يخرجوه إلى النور، ويثروا به المكتبة الفقهية، وخاصة المالكية، بتأليف في موضوع لم ينشر له قبل في موضوعه أيّ كتاب، وبطبيعة الحال ـ حسب علمي ـ لأنّه لا يوجد غيره.

ثانيا : وإن كان هذا العامل من ناحية الأمانة العلمية يعتبر نقمة، إلاّ أنه نقمة جلبت نعمة، وذلك: في خضم السعي المحمود الذي يسعاه علماء المغرب الأقصى لإحياء تراث علمائهم، وهم مشكورون على ذلك، ومن بين علمائهم الذين اجتهدوا لإخراج مؤلفاته إلى النور عبد الرحمن بن عبد القادر بن علي الفاسي (المتوفي سنة 1096هـ) والذي يشبّه بالحافظ السيوطي لكثرة مؤلفاته، والذي سبق وأن طبعوا له عدة مؤلفات منها شرح العمليات الفاسية وغيرها. وكما هو ملاحظ: إنّ هناك تطابق في الاسم ـ عدا النسبة، مما جعلهم يظنون أنّ كتاب التعريج والتبريج من بين مؤلفاته، فاجتهدوا في طبعه عدة مرات، ونسبوه له، ولو ألزموا أنفسهم بعض العناء في البحث في قائمة مؤلفاته، لتفادوا هذا اللبس، لكن الشغف لإخراج كتاب فريد في موضوعه جعلهم يسرعون في طبعه من دون تأكّد في صحّة نسبته له، وهم لا يدرون بأنهم بعملهم الجليل هذا، يخرجون إلى النور كتابا لعالم من بلد غير بلدهم قد ظلمه أهله قبل غيرهم.

هذا. وقد طبع الكتاب بالعربية ثلاث مرات:

---

[1] – مثلا: كتاب صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي العاشر. مخطوط بالمكتبة الوطنية. الجزائر تحت رقم: 1721. ورقة: 151 . وكتاب نشر المثاني: ج: 2. ص: 88. اللذان أحصيا كلّ مؤلفاته.

[2] – تاريخ الأدب العربي: ج: 2. ص: 460. بالألمانية.

[3] – ج: 5. ص: 550.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أوّل ما ظهر هذا الكتاب كان سنة 1317هـ. بطبعة حجرية بفاس. طبعة المولى عبد العزيز[1]. بتصحيح محمد المهدي بن محمد بن محمد بن الخضر العمراني الوزاني. في 139 ص[2]. وحسب ابن شنب: طبع تحت عنوان: التعريج والتبريج في أحكام المغارسة والتوليج[3]. بدون ذكر التصيير. وحسب سركيس: طبع موسوما: بالتعريج والتبريج في أحكام المغارسة والتصيير والتوليج[4].

وظهر هذا الكتاب للمرة الثانية سنة 1332 هـ في 117 ص. فحسب ابن شنب طبع موسوما بعنوان: التفسير والتسهيل في ذكر ما أغفله الشيخ خليل من أحكام المغارسة والتلويح[5]. وحسب سركيس: أنّه طبع موسوما: بالتفسير والتسهيل في ذكر ما أغفله الشيخ خليل من أحكام المغارسة والتوليج والتصيير. أو التعريج والتبريج في أحكام المغارسة والتصيير والتوليج[6].

وأخر مرة ظهر فيها هذا الكتاب هو سنة 2005م عن دار ابن حزم ببيروت بالاشتراك مع دار التراث ناشرون بالجزائر منسوبا إلى مؤلفه الحقيقي في 586 صفحة، وخرج في ثوب قشيب بتحقيق علمي مع فهارس فنية مِن قِبَلنا، وكان موضوع مذكرتي للماجستير تحت إشراف الدكتور نور الدين عباسي بكلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر.

هذا. ودون أن ننسى أن جزءًا من متن الكتاب دون الشرح قد طبع مع مختصر الشيخ خليل في طبعاته المتتالية، كما طبع ذلك الجزء مشروحا شرحا مختصرا ضمن بعض شروح مختصر الشيخ خليل المتأخرة؛ مثل شرح منح الجليل للشيخ عليش، وجواهر الإكليل للآبي الأزهري.

الفرع الرابع : ترجمة الكتاب إلى الفرنسية

لقد أكرم الله تعالى هذا الكتاب؛ بأن يسّر ظهوره لغير القارئين بالعربية. وبالذات اللغة الفرنسية على يد أحد أعلام الجزائر النبغاء وهو محمد بن أبي شنب رحمه الله. فقد قام هذا العالم بترجمة كتاب التعريج والتبريج إلى اللغة الفرنسية، وما ذلك إلا لعلمه بقيمته العلمية والفقهية، وبذلك يطلع علماء الغرب على بعض نظمنا الفلاحية. وقد ترجمه تحت عنوان:

La plantation a Frais commun

طبع في الجزائر سنة 1895م. وطبعا منسوبا إلى عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي المتوفى سنة (1096هـ).

الفرع الخامس : مراحل تأليف الكتاب

---

[1] – الذي ذكر اسم الطابع هو محمد الحبيب التجكاني. عند سرده لقائمة مراجعه لتحقيقه كتاب المسائل. لابن رشد. ج: 2. ص: 1354.

[2] – المطبوعات الحجرية في المغرب. جمع وإعداد فوزي عبد الرزاق. ص: 34.

[3] – نفس المصدر السابق، ونفس الصفحة.

[4] – معجم المطبوعات العربية والمعربة. يوسف إليان سركيس. ص: 2 / 1618.

[5] – المطبوعات الحجرية في المغرب. جمع وإعداد فوزي عبد الرزاق. ص: 34.

[6] – معجم المطبوعات العربية والمعربة. يوسف إليان سركيس. ص: 2 / 1618.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من خلال خطبة المؤلف، يتّضح لنا الخطوات التي سار عليها الشيخ في تأليف كتابه التعريج والتبريج حتى أصبح ملخّصا، ومهذّبا، ومدرجا، ومقرّبا، مثل ما ذكر المجاجي. وهذه الخطوات هي:

أولا : مسائل للمغارسة استحضرها، وكتبها وأرسلها إلى شيخه بطلب منه؛، وعلى الأقل كانت تشمل ما يصحّ منها، وما يترتّب على فسادها.

ثانيا : عبارة عن جمع مسائل جمّة وأحكام مهمة في باب واحد. ثم أتبعه بشيء من أحكام التصيير والتوليج. وكان هذا بطلب من بعض إخوانه من الطلبة وأحبابه من أهل نسبته.

ثالثا : كتابته على شكل متن على طريق الشيخ خليل في مختصره، في اصطلاحه ومحاذاة عبارته. بحيث يذكر فيه ما حضر له في هذا الباب، من جملة الأحكام التي اختطفها من غير ما كتاب.

رابعا : وهي المرحلة الأخيرة، وهي وضع الشرح على المتن لبيان ما فيها من مقاصد وأغراض. ومن عناية القدر أن يكون كاتب المتن هو نفسه الشارح، لأنّه لا يدرك المعنى المقصود من المتن إلاّ كاتبه.

الفرع السادس : أسباب تأليف الكتاب

يمكن أن نرجع أسباب تأليف الشيخ المجاجي لكتابه التعريج والتبريج إلى ثلاثة أسباب: سببان مباشران، وآخر غير مباشر.

أولا : السببان المباشران: وهما:

1/ ما ذكره الشيخ المجاجي نفسه في خطبة كتابه، وهو أنّه كتب أصل الكتاب بطلب من أحد مشايخه الذي راسله في ذلك، ويظهر أنّ شيخه هذا لم يكن من بلدته مجاجة، بل كان بعيدا عنه، فاضطرّ إلى مراسلته، ويحتمل أن يكون من مدينة تلمسان التي بدأت الغراسة تظهر وتتطور فيها، كما نشطت الزراعة بقدوم الأندلسيين الفارين بدينهم، والذين نقلوا معهم كثيرا من المنتوجات الزراعية وشتّى أنواع الأشجار المثمرة، والتي ما كان يعرفها أهل المغرب عموما، وهذا ما سنعرفه بعد حين في السبب غير المباشر.

2/ أنّ الشيخين خليل بن إسحق وعثمان بن الحاجب رحمهما الله قد أغفلا الكلام على المغارسة في مختصريهما، على أهمّية هذا المبحث، كما لم يفردا التصيير والتوليج بباب خاص لكل واحد منهما، وإن كانا قد تكلّما على بعض مباحثهما في ثنايا مختصريهما في مواضع مختلفة. وكما هو معلوم أن هذين الكتابين قد سيطرا على الساحة الفقهية في المغرب العربي في العصور المتأخرة سيطرة كاملة، فتناوله الطلبة بالحفظ، والمشايخ بالشرح ووضع الحواشي عليه.

ثانيا : السبب غير المباشر: إنّ الغراسة والزراعة لم تكن معروفة في بلد المجاجي من قبل، كما أشار إلى ذلك المجاجي نفسه. لكنّها تطوّرت في العصر التركي في الجزائر تطورا كبيرا، وهذا ليس راجعا بالأساس إلى الأتراك أنفسهم، بل إلى الأندلسيين، الذين فرّوا بدينهم من اضطهاد النصارى لهم، فاستقبلهم الجزائريون في تلمسان وغيرها من المدن الجزائرية أحسن استقبال[1]، واندمجوا معهم، وبالتالي أدخلوا معهم حرفا وصناعات

[1] – وخاصة تلمسان. انظر تلمسان عبر العصور. محمد الطمار. ص: 237. وهذا مما يرجّح أن الشيخ الذي راسل المجاجي قد يكون من الشيوخ الذين تتلمذ عليهم فيها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(وخاصة الفلاحة) وآلات لم يعهدها أهل المغرب العربي من قبل، وأفادوهم بتجاربهم من ريّ إلى غراسة إلى تربية الحيوانات[1].

هذا جعل علماء الجزائر أمام عقود فقهية جديدة واقعا، قديمة فقها. ممّا اضطرّهم إلى التفكير في هذه العقود الفقهية التي تنظم الحياة الفلاحية، فكان من بينها عقد المغارسة الذي يحتاج إلى ضبط يلائم العصر، فالمصنفون السابقون انقسموا أمام هذا الموضوع إلى قسمين:

1/ قسم أهمل الموضوع كلّية، مثل الشيخين خليل وابن الحاجب.

2/ وقسم لم يهمل هذا العقد، لكن اقتصر في كتابه على بعض جوانبها مما لا يسعف في تشكيل نظرة متكاملة عنه، وغالبا تكون نظريّة أكثر منها تطبيقية، وهذا الذي سار عليه أغلب من بوّب للمغارسة في كتابه.

هذا ما جعل الشيخ المجاجي . وبطلب من أحد شيوخه . يفرده في تأليفٍ، ويجمع جلّ مسائله في كتاب واحد، حتى يكيّفه تكييفا فقهيا متكاملا كبقيّة العقود، تكفي الطلبة مؤنة البحث عنه في أشتات بطون الكتب. مع تزويده بكثير من النوازل والفتاوى؛ التي تجعله أكثر ارتباطا بالواقع المعيش.

الفرع السابع : أغراض تأليفه

يمكن أن نجمل أغراض تأليف الشيخ المجاجي لكتابه في غرضين: غرض علمي وآخر اقتصادي.

أولا : الغرض العلمي : لقد أفرد الشيخ المجاجي المغارسة على وجه الشركة بالتأليف، وجمع جلّ مسائلها في كتاب واحد، في منهجية علمية واضحة متسلسلة، وشكّل لها نظرية فقهية مالكية موحّدة غير مشتّتة، في حين لم يفرد لها العلماء الآخرون كتابا يستحقّ أن يدرج ضمن قائمة الكتب الفقهية المتخصّصة، وإنما أفردوا لها أبوابا في كتبهم، ولم يتناولوها كبقية العقود، وهم في ذلك ظلموا مبحث المغارسة من وجهين:

1/ أنّهم لم يجملوا مسائلها، لا أقول كلّ مسائلها، ولكن على الأقل مسائلها الهامة بحيث تكتمل صورتها الفقهية، بل يذكرون بعضها، فتجد عند هذا ما لا تجده عند غيره، وبالتالي فلا يمكن الاكتفاء بواحد منها.

2/ لم يعرضوها في منهجية علمية منسقة ومتسلسلة، مثلما فعلوا في العقود الأخرى؛ أي ذكر التعريف[2]، أقسامها، شروطها، مبطلاتها... الخ. ولعل ذلك راجع إلى أنها ليست بعقد عندهم كما صرح بعضهم، وقد ردّ الشيخ الرصاع على هذا الرأي، واعتبره غير صحيح، وصرّح الشيخ ابن عرفة في مواضع من كتابه المختصر بأنّها عقد[3].

---

[1] – انظر دراسات في الملكية العقارية. د. ناصر الدين سعيدوني. ص: 28

. الجزائر بين الماضي والحاضر. أندري برنيان. وغيره. ترجمة رابح اسطنبولي. ص: 144.

[2] – حتى الشيخ ابن عرفة الذي وضع الحدود لكل العقود، لم يعرف عقد المغارسة واكتفى بتقسيمها.

[3] – انظر حدود ابن عرفة بشرح الرصاع: ص: 391.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانيا : الغرض الاقتصادي : وذلك لتنظيم الصيرورة الاقتصادية الفلاحية الجديدة التي ظهرت بمقدم الأندلسيين إلى المغرب العربي. هذا الجانب الحسّاس في حياة الجزائريين الذين كانوا أحوج ما يكونون إلى تنظيمه، وذلك لطغيان الفلاحة على نشاطهم اليومي، وأغلبهم كان هذا هو مصدر قوتهم وعيشهم. وفي المقابل شاعت بعض المعاملات الفلاحية التي لا تمتّ إلى الفقه بصلة، كما نقل ذلك المجاجي في كتابه هذا.

الفرع الثامن : أهميّة الكتاب[1]

سأجمل أهميّة الكتاب في ثلاثة فروع، وهي: أهميّته الفقهية، وأهميّته الاجتماعية، وأهميّته التاريخية.

أولا : أهمية الكتاب الفقهية : تظهر أهميّة الكتاب الفقهية فيما يلي:

1/ أعطى لنا صورة مجملة ومتكاملة عن عقد المغارسة على وجه الشركة، وكوّن لها نظرية فقهية متجانسة، وقد أشار هو نفسه إلى ما قام به. حيث قال: "وها أنا قد بُحت لك أيّها النّاظر بما أسررته، وأفدتّك أيّها الطّالب بما قرّرته وحرّرته، وقرّبت إليك فوائد كثيرة، بعد أن كانت بعيدة عن الأفهام، ووضعت لك فوائد وزوائد على التّمام، لتنالها أيّها الرّاغب بأدنى إلهام".

2/ جمع لنا فقه الأرض وأهمّ ما يتعلّق بها من أحكام. وهذا اتجاه جديد في التأليف الفقهي التخصّصي، الذي يسلّط الضوء على باب واحد، والذي يعطي للموضوع الضبط التام، والإحاطة الكلّية بجزئياته، ولا أزعم أنّه أول من كتب في هذا النوع من التأليف، ولكنه ساهم في بناء سرحه.

3/ جمع لنا مجمل أحكام التصيير والتوليج، فإنّه لم يفرد لها المؤلفون أبوابا خاصة بها، سوى ما فعله القلّة من أمثال ابن سلمون، فأحكامهما تفرّقت في أبواب الإقرار والدعاوى والحدود والصلح والوصايا وحتى النكاح... الخ.

4/ أنّه اتجاه جديد في التأليف في المجال الفقهي، فلم يقتصر على الجدالات النظرية، ونقل آراء جهابذة المذهب القدامى فقط، كما هي عادة المؤلفين في عصره وقبله، بل زوّد كتابه بالنوازل الواقعية، التي تعالج المشاكل بروح العصر. فهو بعمله هذا يمكن أن نعتبر كتابه هذا كتاب فقه ونوازل في نفس الوقت، في حين كان معاصروه عموما يفرقون بين النوعين في التأليف.

5/ كما حفظ لنا الكثير من النصوص الفقهية، وخاصة لأعلام جزائريين لم يصل لنا من أخبارهم شيء، والتي كادت أن تضيع، من أمثال ابن عبد السلام المليانى، وعبد الرحمن بن مغلاش الوهراني، وموسى بن عمر فقيه الجزائر.

6/ كما يمكن أن نعتبر الكتاب مرجعا هاما من المراجع الفقهية في النظائر، فقد تضمن الكتاب مجمل ما يشترط في الحوز وما لا يشترط فيه ذلك.

ثانيا : أهمّية الكتاب الاجتماعية : إنّ الكتاب ينقل لنا بعض المظاهر الاجتماعية للمجتمع الجزائري، في فترة تعتبر غامضة جدا، ألا وهي الفترة العثمانية، وقلّة هي المراجع التي اهتمت بالكشف عن

[1] – لقد قام الأستاذ عبد الرحمن موساوي بتحليل كتاب المغارسة وبيان أهميته في مجلة شعوب مغربية. بالفرنسية. العدد 89. أفريل، جوان. سنة 1989م. الجزائر. ص: 87 وما بعدها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا الجانب المهمّ من حياة المجتمع الجزائري، باستثناء كتب الرحلات والمذكرات، وبعض المراجع التاريخية القليلة التي لا تشفي الغليل.

ومن بين المظاهر الاجتماعية التي ينقلها لنا عن أهل عصره ما يلي:

1/ ما يأخذه وليّ الزوجة من الحباء، ثم يقع التداعي فيه بعد موت قابضه، أو وقوع شرّ بين الزوجة ووليّها أو بين الوليّ والزوج، وهو المسمى " بالعمامة "، فإذا انعقد النكاح بين رجل وامرأة، وشرط أبوها أو أخوها أو قريبها أو غيره الحباء والكرامة لنفسه في عقد النكاح، فذلك كلّه للزوجة إن طلبته منه.

2/ ما يفعله أهل البادية في تصييرهم لزوجاتهم " بيوت الشَّعر " في أصدقاتهن، ثم يبقى الزوج ساكنا مع الزوجة إلى الممات.

3/ إذا اصطلح قوم في مواريث، وضمن حاضرهم أمر غائبهم . بمعنى: أنّ الغائب إن كره الصّلح أو ادّعى شيئا، فإنّ الحاضر يتولاّه . فإنّه لا يجوز، وذلك مفسوخ. قال المجاجي: "وهذا كثير الوقوع في زماننا لجهل الناس، بل والمتولّين للفصل بينهم بالحكم". وفي هذا إشارة إلى الجهل المنتشر بين أهل زمانه، وما آل إليه القضاء في عصره، بحيث تولاّه من ليس أهلا له.

4/ كما نقل لنا عادة اعتادها العوام في معرفة البلوغ، وهي لحد الآن ما زالت تستعمل في القطر الجزائري؛ وهي أن يؤخذ خيط ويثنيه ويديره برقبته، ويجعل طرفيه في أسنانه، فإن دخل رأسه منه فقد بلغ، وإلاّ فلم يبلغ.

5/ كما نقل لنا عادة في التكسّب كانت منتشرة في وقته (سيما الضعفاء والمساكين والفقراء) وهي التكسّب والتمعّش بخدمة النساء.

كما يمكن أن يضاف إلى هذا العنصر بعض العادات الفلاحية التي تضمّنها كتابه، منها عدم انتشار غرس الأشجار في عصره، واهتمام الناس بالرعي وزراعة الحبوب. ومنها انتشار الغرس، أو البناء بإزاء سور بلاد المسلمين، بحيث يتمكّن العدوّ من التّواري بذلك الغرس أو بذلك البناء. كما نقل إلينا أن الأجناد كانوا يمتهنون الفلاحة والغرس. ونقل إلينا أن زريعة المقاتي كانت لا تباع في منطقته، وهذا لأنّها كانت لا قيمة لها. كما نقل إلينا عادة اتخاذ الخمّاس والمَقَاطَعْ.

ثالثا : أهميّة الكتاب التاريخية : إن للكتاب قيمة تاريخية واضحة من خلال الإشارات التي نقلها لنا الشيخ المجاجي، والتي على قلّتها، وقد تبدو لأوّل وهلة بسيطة، لكن تنطوي على أهمية كبيرة، إذ تكشف لنا بعض الحقائق، قد لا نجدها في بعض الكتب المتخصّصة.

فقد نقل لنا تاريخ المناظرة التي وقعت بين الشيخ البرزلي والشيخ أبي العباس الهنتاتي، وهو سنة ثمانية وعشرين وثمانمائة (828هـ)، وعندها ذكر لنا تاريخ وجود الإمام ابن مرزوق الحفيد في تونس، الذي كان كثير التردّد عليها. كما أبرز لنا سمة الأمير الحفصي، الذي كان يحكم في ذلك الوقت وهو أبو فارس عبد العزيز الحفصي، وهي رجوعه إلى العلماء، واستفتاؤه وتوقيره لهم.

كما نقل لنا الحال التي آل لها الريف في المغرب العربي، من تعرض أهله للغارات من قِبل الأعراب، كما نقل إلينا تشتّت أمور الأوقاف في الغرب الجزائري في إبان العهد التركي، وهذه وثيقة فريدة تضاف إلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوثائق الأخرى، والتي تعبّر بصدق عن أحوال المجتمع الجزائري في العهد العثماني. كما نقل إلينا عدم اهتمام الأتراك باختيار الأنسب في المناصب القضائية، وأصبحت هذه المناصب مغنما. كما خلّد ذكر بعض الأسماء العلمية الجزائرية، والتي لم يصل إلينا عنها شيء، من أمثال موسى بن عمر فقيه الجزائر، وابن عبد السلام المليانى، وعبد الرحمن بن مغلاش.

خاتمة

إن الإمام عبد الرحمن بن عبد القادر الراشدي المجاجي الجزائري يعد حلقة من حلقات النبوغ العلمي في الجزائر، ولقد أثرى المكتبة الفقهية بكتاب فريد في موضوعه، وقد انتزع مكانته العالية بجدارة واستحقاق، ولإن ظلم هذا الإمام مرتين، الأولى بأن طوي في غياهب النسيان، فلا يكاد يعرفه أحد حتى من أبناء بلدته مجاجة في العصر الحديث، والثانية بأن سلب حقه الخالص عندما طبع كتابه منسوبا إلى غيره، إلا أنه قد يشفع لنا بأن قد أعدنا له حقه، وخدمنا كتابه خدمة في حدود إمكاناتنا العلمية.

قائمة المصادر والمراجع

. الأعلام. خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان. الطبعة العاشرة. سنة 1992 م.

. البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. محمد بن محمد الملقب بابن مريم. وقف على طبعه محمد بن أبي شنب. المطبعة الثعالبية. الجزائر. طبعة سنة 1326 هـ/ 1908 م.

. تاريخ الأدب العربي (بالألمانية). كارل بروكلمان. طبع في برلين. ألمانيا. سنة 1902 م.

. تاريخ الجزائر الثقافي. أبو القاسم سعد الله. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. طبعة سنة 1981

. تعريف الخلف برجال السلف. أبو القاسم محمد الحفناوي. مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية. سنة 1405 هـ/ 1985 م.

. تلمسان عبر العصور. محمد الطمار. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. طبعة سنة 1984 م.

. الجزائر بين الماضي والحاضر. أندري برنيان وغيره. ترجمة رابح اسطنبولي ومنصف عاشور. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. طبعة سنة 1984 م.

. حدود ابن عرفة بشرح الرصاع. محمد الأنصاري المشهور بالرصاع التونسي. المطبعة التونسية. تونس. الطبعة الأولى سنة 1350 هـ/ 1931 م.

. دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر. عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو. الطباعة الشعبية للجيش. الجزائر. طبعة سنة 1392 هـ/ 1972 م.

. سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول. عبد الله بن محمد بن الشارف بن علي حشلاف. المطبعة التونسية. تونس. طبعة سنة 1348 هـ/ 1929م.

. دراسات في الملكية العقارية في العهد العثماني. ناصر الدين سعيدوني. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. طبعة سنة 1986 م.

. السلسة الوافية والياقوتة الصافية في أنساب أهل البيت المطهر أهله بنص الكتاب. أحمد بن محمد العشماوي ثم المكي. ضمن كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب. لبلهاشمي بن بكار. مطبعة ابن خلدون. تلمسان. الجزائر. طبعة سنة 1381 هـ/ 1961 م.

. صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي العاشر. مخطوط بالمكتبة الوطنية. الجزائر تحت رقم: 1721.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

. عجائب الأسفار ولطائف الأخبار. أبو راس الناصري المعسكري. مخطوط بالمكتبة الوطنية . الجزائر . تحت رقم 1632.

. المسائل. محمد بن أحمد بن رشد القرطبي. تحقيق محمد الحبيب التجكاني. دار الجيل. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية. سنة 1414 هـ. .

. المطبوعات الحجرية في المغرب. جمع وإعداد فوزي عبد الرزاق. مطبعة المعارف الجديدة. الرباط. المملكة المغربية. طبعة سنة 1989 م.. معجم أعلام الجزائر. عادل نويهض. المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. سنة 1971 م. . معجم المطبوعات العربية والمعربة. يوسف إليان سركيس. مطبعة سركيس. مصر. طبعة سنة 1346 هـ/ 1928 م.

. نشر المثاني. محمد بن الطيب بن عبد السلام. طبعة حجرية بفاس. سنة 1310 هـ. . هدية العارفين إلى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون. إسماعيل باشا البغدادي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. طبعة سنة 1413 هـ/ 1992 م.

. اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة. محمد البشير ظافر الأزهري. مطبعة الملاجئ العباسية التابعة لجمعية العروة الوثقى. مصر. طبعة سنة 1325 هـ.

. مجلة شعوب مغربية. (بالفرنسية). العدد 89. أفريل، جوان. سنة 1989م. الجزائر.

2014 سبتمبر 16 جامعة الجزائر

.....

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com